بصة اخرى ثم شربت ثلث الكاس واعيد الكيس على ابهام يدها مراراً مدة ساعة من الزمان شربت في غضونها اربع كؤوس من الماء وكاساً من اللبن . وربط ابهام يدها برباط من الكاوتشوك يضغط عليهِ فنامت تلك الليلة وهي اول ليلة نامتها منذ اصابها الألم . وزال كل الورم تقريباً وصارت تبلع بسهولة ثم شفيت تماماً . انتهى

فهل حدث ذلك بالوهم والاستهواء او ان تفرُّعات الاعصاب قادرة ان تجيش جيوش الخلايا البيضاء من الدم لإزالة اسباب الالتهاب او ان لازالة هذا الألم وعلتهِ سبباً آخر غير معروف . ذلك ما لا بدَّ من كشفهِ عاجلاً او آجلاً

أوَهمٌ ام سرٌّ خفي

السر كونان دويل من اشهر كتَّاب الروايات باللغة الانكليزية ولاسيما الروايات التي موضوعها كشف الجناة . وقد كتب الآن عن حوادث وقعت لهُ وهي في حد الغرابة ولولا اعتقادنا صدقهُ ونزاهتهُ لضربنا عنها صفحاً ولم نعنَ بالاشارة اليها . اما وهو من نوابغ الكتَّاب الذين يشار اليهم بالبنان فرأينا ان نذكر خلاصة هذه الحوادث ونلخصها بما يبدو لنا من تعليلها

الحادثة الاولى — كان مسافراً في سويسرا سنة ١٨٩٢ وقادهُ الترحال الى عبور ممر جبلي فرأى على رأس الاكمة المشرفة عليهِ فندقاً منفرداً يطلُّ على الوادي الذي تحتهُ فقال في نفسهِ ان هذا الفندق يفتح صيفاً ويقفل شتاء لتراكم الثلج عليهِ وشدَّة البرد فيهِ ثم يلذهُ ان اصحابهُ لا يهجرونهُ ابداً بل يجتمعون مؤونة الشتاء ويبقون فيهِ . فجعل يفكر في امرهِ وحاك في صدرهِ ان يؤلِّف قصَّة يجعل فيها سكان الفندق مختلفي الطباع جدًّا ويصف ما يحلُّ بهم من اختلافهم هذا وهم مضطرون ان يقيموا في ذلك الفندق كل فصل الشتاء والناس تحتهم في الوادي عائشون على تمام الرفاء والهناء . وبينما هو يحلُّ في هذا الموضوع ويؤلف القصة في ذهنهِ اشترى كتاباً في الطريق من اوضاع المسيو موبسَّان والقصة الاولى فيهِ عنوانها الفندق (d'Auberge) فتلاها واذا هي تصف ذلك الفندق عينهُ وموضوعها مثل الموضوع الذي رتَّبهُ في ذهنهِ . وقال انهُ لم يكن قد رأى هذا الكتاب ولا سمع بهِ ولو ألَّف الرواية التي خطر على بالهِ تأليفها لثبت عليهِ انهُ سرقها من كتاب موبسَّان . فكأنَّ قوة غير طبيعية جعلتهُ يفكر كما فكَّر موبسَّان تماماً ثم منعتهُ من ان يكتب شيئاً يعدُّ انتحالاً ولو لم يقصد الانتحال

الحادثة الثانية — ان الفتاة التي ابداها في رواياته المشار اليها آنفاً جعلت كثيرين يلجأون اليه ليساعدهم في اكتشاف الجناة فكان يفوز بالمراد غالباً . وكان في حادثة من الحوادث التي طُلبت مساعدته فيها رجل يدعى سماه جون ولدر هاجر الى اميركا وهو من الذين لهم علاقة كبيرة بالجناية فلم يكد يتناول البحث في هذه الحادثة حتى اخذ واحد يرسل اليه الجرائد من مدينة في كليفورنيا بعد ان يكتب على حواشيها عبارات التهكم والازدراء مشيراً فيها الى بحثه في هذه الحادثة . ثم ان هذا الرجل كتب اسمه وعنوانه في حاشية جريدة منها وهو جون ولدر . فكتب السر كونان دويل الى رئيس البوليس في تلك المدينة يسأله هل هذا الرجل مقيم هناك فاجابه بالايجاب . فلم يرَ بدًّا من حسبانه نفس الرجل المطلوب . فاخبر بذلك رجال البوليس في انكلترا وهؤلاء بحثوا وحققوا فوجدوا ان جون ولدر الساكن في تلك المدينة هو غير جون ولدر المطلوب وان الذي كان يرسل الجرائد الى السر كونان دويل هو رجل آخر معروف في تلك المدينة وهو اميركي مختل الشعور . وقال السر كونان دويل ولا شبهة انهُ لم يكن لهذا الرجل اقل علاقة بالجريمة ولكنني لا ادري ما دعاهُ الى الاهتمام بها ولا ما هو سبب هذا الاتفاق الغريب

الحادثة الثالثة — قال السر كونان دويل كنت ماشياً مع زوجتي في الينشيو برومية ولم تكن زوجتي قد رأت ذلك المكان ولا قرأت عنهُ شيئاً اذ كنا في اليوم الاول من زيارتنا لرومية فقالت لي اننا سنرى هنا تمثال دنتي وبعد دقائق قليلة وصلنا الى حيث كان تمثالهُ فقلت لها كيف عرفت ذلك فقالت لا اعلم

الحادثة الرابعة — قال ايضاً تعلقت على البحث في المواضيع الغامضة (كمناجاة الارواح) مدة ثلاثين سنة وكنت مرةً مقيماً في قرية فتعرفت بطبيب فيها صغير الجسم قليل العمل وبلغني ان في بيتهِ غرفة سرية لا يدخلها احد غيرهُ وانها مختصة بالبحث في المواضيع الفلسفية الغامضة لانهُ من الباحثين في هذه المواضيع . فزاد اهتمامي بامره ولما رأى مني ذلك عرض عليَّ ان انضم الى جمعيته السرية وجرى بيننا حينئذٍ الحديث التالي

قلت — ماذا استفيد من هذه الجمعية

فقال — تكتسب قوًى مع الزمن لا تجدها فيك الآن

فقلت — ما نوع هذه القوى

فقال — هي من النوع الذي يسميهِ الناس فوق الطبيعة مع انها طبيعية محضة ولكن لا ينالها احد الاَّ بعد ما يعرف اعماق قوى الطبيعة

فقلت — ان كانت هذه القوى مفيدة فلماذا لا تعلنون بها كل الناس

فقال — لاننا نخاف ان يسيء بعضهم استعمالها

فقلت — كيف تضمنون منعها عن الذين يسيئون استعمالها

فقال — بامتحان الذين يطلبون الانضمام الينا

فقلت — وهل مرادكم ان تمتحنوني

فقال — نعم

فقلت — من يمتحنني

فقال — الذين منا في لندن

فقلت — وهل يُطلب مني ان احضر لديهم

فقال — كلا بل هم يفعلون ذلك من غير ان تعرف

فقلت — ثم ماذا

فقال — يجب ان تدرس

فقلت — ماذا ادرس

فقال — يجب ان تستظهر اشياء كثيرة اولاً

فقلت — اذا كانت هذه الاشياء مطبوعة فكيف لا يطّلع الجمهور عليها

فقال — انها ليست مطبوعة بل هي مكتوبة كتابةً في كراريس وعلى كل كراس منها عدد ما وقد اتّفق عليها اعضاء جمعيتنا ولم يحدث حتى الآن ان احداً منهم خاننا

فقلت — لا مانع اذاً من ان تسيروا في عملكم من جهتي

وبعد نحو اسبوع نهضت في الصباح ذات يوم واذا انا اشعر بدويّ في اذنيّ وبدني كلهِ كأنّ هزّة كهربائية مرّت في جسمي فخطر ببالي حالاً ذلك الطبيب . وبعد ايام قليلة زارني وقال لي بلسانهِ انك امتحنت فجزتَ الامتحان والآن قُلْ لي هل انت مستعد ان تسير معنا لانك اذا ابتدأت لا تستطيع ان ترتد فإما ان تسير معنا الى النهاية او تعدل عن ذلك من الآن

فرأيت حينئذٍ ان الامر مهم جداً واني لست في سعة من الوقت لهُ فاخبرتهُ بذلك فلم يسأ بل قال اذاً تركنا هذا الموضوع ولا نعود اليهِ الاّ اذا غيّرتَ فكرك

وبعد شهر او شهرين زارني هذا الطبيب ومعهُ طبيب آخر اسمهُ معروف لديّ وهو رحّالة في الاقاليم المتارتة مشهور فجلسا معي حول النار في مكتبي ولحظت ان الرحالة كان شديد

الاحترام للطبيب مع ان الطبيب اصغر منهُ سنًّا ثم قال لي الطبيب ان فلانًا أي الرحالة من تلامذتي ثم التفت الى الرحالة وقال لهُ ان دوبل كاد يصير من جماعتنا . والمحال جعل الرحالة يتكلم مع الطبيب عن الغرائب التي شاهدها فاصغيت الى كلامهما كأني اسمع اثنين من المجانين . واتذكر الآن ان الرحالة قال للطبيب ما نصهُ انك لما اخذتني معك وكنا سائرين فوق المدينة التي كنتُ مقيمًا فيها في اواسط افريقية رأيت لاول مرة الجزائر في البحيرة . وقد كنت اعلم ان هذه الجزائر فيها ولكنني لم ارها قبلاً لبعدها عن الشاطئ . ألا يُستغرب انني رأيتها اول مرة وانا مقيم في لندن

الحادثة الخامسة — ذهبتُ مرةً لانام في بيت يقال ان الارواح تسكنهُ وذهب اثنان ليناما معي فيهِ وكنا كلنا موفدين من قبل جمعية المباحث النفسية التي انا من اعضائها الاوائل . وكان الساكنون في هذا البيت يسمعون اصواتًا مزعجة في الليل فاضطروا ان يهجروهُ . ولم نسمع نحن شيئًا في الليلة الاولى ومضى واحد من رفيقيَّ وبقيت انا والرفيق الآخر وهو المستر بُدمور المشهور في بحث الامور النفسية نحوطنا الاحتياط الكافي لمنع كل غش وغنا ولم يكد الليل ينتصف حتى سمعنا صوتًا كأن احدًا يضرب على طاولة بمطرقة كبيرة وكانت ابواب الغرف مفتوحة كلها فقمنا واسرعنا الى المطبخ لان الصوت كان صادرًا منهُ فلم نجد فيهِ شيئًا فاخذ بُدمور المصباح وعاد الى غرفة الجلوس وبقيت انا في الظلام لعلي اسمع الصوت ثانية ولكن الصوت انقطع ولم يعد تلك الليلة

وبعد سنوات احترق ذلك البيت ووجد في حديقتهِ عظام فتى عمره نحو عشر سنوات مدفونة في الارض . ويقال ان موت هذا الفتى وهو في عنفوان صباهُ جعل ما لم يُستغرَف من قوتهِ يبقى هناك وهو سبب ما يسمع من الاصوات . انتهى كلام المؤلف

من يقرأ هذه الحوادث وامثالها قلما يخطر ببالهِ ان يرتاب في صحتها لا سيما وان راويها من كبار الكتاب المشهورين . اما نحن فنرتاب في صحتها كل الريب ودليلنا الاكبر على هذا الريب كون السر كونان دوبل من الذين اشتغلوا ثلاثين سنة في المباحث النفسية فعقلهُ معرَّض لتصديق الغرائب . اي انهُ من الذين تستهويهم الغرائب فيسهل انخداعهم بها . واذ قد تمهد ذلك ننظر في ما تحتملهُ كل حادثة من الحوادث المذكورة آنفًا من التعليل

الاولى حادثة الرواية التي كان يفكر في تأليفها ثم اطَّلع على رواية مؤلفة في موضوعها تمامًا . فانا نعللها بانهُ سمع خلاصة هذه الرواية ممَّن قرأها ثم نسي انهُ سمع ذلك وجعل يفتكر

به كأنهُ من بنات افكاره لا كأنهُ سمعهُ قبلاً . ومامن احد الاَّ وقد وقع لهُ شيء من ذلك ولا سيما اذا سمع كلاماً وهو منتبه الى حديث آخر فان الكلام يدخل اذنيهِ و يرتسم في ذاكرتهِ في الوقت الذي يكون انتباههُ موجهاً الى شيء آخر فلا يشعر انهُ سمعهُ ولكن اثرهُ يبقى في ذهنهِ فاذا حدث ما نبههُ اليهِ حسب انهُ شيء جديد في دماغهِ

الثانية حادثة الرجل الذي هاجر الى اميركا فان مماثلة اسمهِ وصناعتهِ لاسم رجل مقيم في كليفورنيا ليس من الامور المستغربة فان اسم هنري سمث مثلاً عند الانكليز مثل اسم محمد توفيق في مصر يسمى بهِ كثيرون . والظاهر ان الرجل المختل الشعور قرأ ان السركونان دويل كان يبحث عن رجل بهذا الاسم وكان يعرف ان الرجل المسمَّى بهذا الاسم في بلدهِ لا يحتمل ان تكون لهُ علاقة بالجريمة فجعل يتهكم عليهِ بما يكتبهُ من الحواشي التي يرسلها اليهِ

والثالثة إخبار زوجتهِ اياهُ بوجود تمثال دنتي قبل ان رأتهُ وفي مكان لم تره قبلاً يفسَّر بانها رأت صورة ذلك المكان قبلاً وصورة ما يجاورهُ ورأت فيهِ صورة تمثال دانتي فلما دنت منهُ تذكرت الصورة الباقية في ذهنها ولكنها لم تتذكر انها رأتها قبلاً وهذا كثير الوقوع

والرابعة حادثة الطبيب والرحالة وقولها انهما طارا في مدينة لندن فرأيا بحيرة في قلب افريقية والجزائر في وسطها . وعندنا ان الطبيب والرحالة من اهل الاوهام وهؤلاء لم يخلُ عصر منهم . فقد جاء في ترجمة ابن الفارض ان رجلاً اراهُ مكة والمدينة وهو في مصر في سفح جبل المقطم وانهُ كان ينتقل الى مكة من مكان يبعد عنها عشرة ايام في ليلة واحدة ثم يعود ثانية واشياء اخرى من هذا القبيل . اما كيف يتوهم بعض الناس انهم انتقلوا من بلاد الى اخرى في لحظة من الزمان فمثل توهم كل احد انهُ يفعل ذلك في الحلم اي ان بعض الناس يحلمون وهم ايقاظ كما يحلمون وهم نيام فانهم يهجسون فيصدقون ما هجسوا بهِ كأنهُ واقع فعلاً لضعف قوة التحقيق فيهم

والخامسة حادثة البيت المسكون . ذكر السركونان ادويل ان رفيقهُ كان المستر بدمور ولا ندري هل هو المستر فرنك بدمور مؤلف كتاب مناجاة الارواح الحديثة وكتاب مناجاة الارواح الاحدث او اخوهُ المستر Podmore . فان كان الثاني فلا شأن لحكمهِ لانهُ سهل الانخداع وان كان الاول فلا ندري هل ذكر هذه الحادثة في كتابهِ ولا ما هو رأيهُ فيها ولكن يظهر لنا انهُ كثير التساهل لا يرتاب في حادثة الاَّ اذا كانت الادلة على نقضها قاطعة . وقد وقع لنا ان شاهدنا بيوتاً مسكونة ترشقها الارواح بالحجارة في ظلام الليل ثم ثبت ان الذين كانوا يرشقون الحجارة غلمان يختبئون في الاشجار وغرضهم الانتقام من السكان